غـــزوة حُنيـــــــــن
دراسة موازنة بين التفسير النقلي والعقلي

إعداد

عبد الرحمن أشرف يحيي عباس

المقدمة:

إن دراسة الآيات المتعلقة بالغزوات في عصر النبي (ﷺ)، تقدم العديد من الإضافات الواسعة إلى مصادر السيرة، فالقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو قطعي الثبوت بالتواتر، ومن ثم لزم تقديمه على روايات المصادر الأخرى في السيرة، والحق أن كتب السيرة أكثرت من الاستشهاد بالآيات المتعلقة بالغزوات وخاصة سيرة ابن اسحاق، فالقرآن عني بتسجيل الدوافع والخلجات النفسية وتصوير انفعالات العزم والخذلان والإقدام والإحجام والإيمان والنفاق والرغبة في الاستشهاد والحرص على الحياة، والثبات والفرار، والمعاني الإيمانية، والنزوات والنزغات الشيطانية، وعوامل التثبيت والإرجاف، وسنن الحياة العامة في الحرب والسلام، وأسباب النصر والهزيمة، وأثر الطاعة والاختلاف، والتنازع والائتلاف، وقوة الإيمان واليقين، وتلون النفاق وضعف المنافقين، والأمر بإعداد الخطة والأخذ بالأسباب مع حسن التوكل على الله والرجاء في نصره[1].

لا يخفى على الكثيرين أن القرآن الكريم تحدث في الكثير من آياته على مفهوم الجهاد والغزوات والسرايا التي وقعت بين المسلمين والمشركين، حيث كان الغرض من ذلك هو التذكر والاعتبار والاتعاظ بما جرى في هذه الغزوات والسرايا لتظل سبيلاً للأجيال القادمة.

لقد تحدثت العديد من القصص النبوية عن غزوات النبي (ﷺ)، كما استعرضت بعض السرايا التي كان النبي (ﷺ) يرسلها، والتي كان لها الدور الأكبر في نشر الإسلام والدعوة إلى الله (ﷻ)، أما الفرق بين الغزوة والسرية هو أن الغزوة تشير إلى المعارك التي شارك بها النبي (ﷺ) وكان يقودها

بنفسه[2]، بخلاف السرية التي لم يشارك بها النبي (ﷺ)، وكان يقودها أحد الصحابة رضوان الله عليهم[3].

لقد خاض النبي (ﷺ) والمسلمون الأوائل معه عدداً لا بأس به من الغزوات منها هذه الغزوات الكبرى التي هي موضوع هذا البحث، والتى استمرت لمدة ثماني سنين، حيث تجدر الإشارة إلى أن النبي (ﷺ) وأصحابه انتصروا في جميع هذه الغزوات إلا غزوة أحد، ومن أشهر الغزوات التي قام بها النبي (ﷺ) وتم ذكرها في القرآن الكريم غزوة بدر 2هـ، وغزوة أحد 3هـ، وغزوة الخندق (الأحزاب) 5هـ، وغزوة حنين 8هـ[4]. كذلك ذكرت غزوات أخرى في القرآن كغزوة تبوك، والعديد من الأحداث الأخرى مثل صلح الحديبية، وفتح مكة وغيرها من الوقائع التي قام القرآن الكريم بتدوينها لتظل شاهداً على عظمة الفتوحات الإسلامية[5].

وقد ذكرت الكثير من هذه الغزوات في القرآن الكريم مع ذكر العديد من المواقف في هذه الغزوات، حيث تم استعراضها في العديد من الآيات القرآنية، وقد فسرت الكثير من هذه الآيات عن طريق المفسرين والفقهاء التي بدأت بمحاولات وفهم شخصي وترجيح لبعض الأقوال على بعض، وكان هذا أمراً مقبولاً ما دام يرجع الجانب العقلي منه على حدود اللغة والدلالة القرآنية، ما أطلق عليه "التفسير العقلي"، أما التفسير النقلي فهو يتم بالاستمداد من الآيات التي ذكرها القرآن الكريم، عن طريق نقل شواهد لمعاني خاصة في القرآن الكريم وهي الغزوات التي قام القرآن بسردها كغزوة بدر وأحد والخندق وغيرها من الغزوات. حيث يمكن الموازنة بين هذه الغزوات بالدليل النقلي

والعقلي كما جاء في القرآن وبين ما جاء في تفسير الفقهاء والاجتهادات المتعددة لكبار فقهاء المسلمين.

وهكذا فإن هذه الدراسة تحاول استعراض غزوة حُنيـــن والتي ذكرت في القرآن الكريم، وبيان كيفية الموازنة بين التفسير النقلي والعقلي في استعراض وتحليل هذه الغزوة، وهو ما سوف يقوم الباحث بتفنيده والتطرق إليه.

غزوة حُنيـن (شوال 8هـ)

- المطلب الأول : المنهج القرآني في عرض غزوة حُنين .
- المطلب الثاني: غزوة حُنين في التفسير النقلي.
- المطلب الثالث: غزوة حُنين في التفسير العقلي.
- المطلب الرابع: الموازنة بين التفسير النقلي والعقلي .

غـزوة حنيـــن(شوال 8 هـ)

تناول الباحث التفسير النقلي والعقلي للآيات القرآنية الواردة في غزوة حنين بعد عرض مقدّمة عن منهج تناول القرآن لها ثم بيان تفصيل ما ورد فيها وذلك في أربعة مطالب.

المطلب الأول

المنهج القرآني في عرض غزوة حُنين 8هـ

التوصيف العام لغزوة حنين:

جاء الحديث القرآني عن غزوة حنين في سورة التوبة في ثلاث آيات فقط لكنها لخصت أحداث المعركة حيث أشارت إلى حال الجيش الإسلامي

وما اعتراه من الضعف مع كثرته، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25)﴾[6].

كما بيّنت ثبات الرسول (ﷺ) والمؤمنين، وإمدادهم بالملائكة، والعذاب الذي وقع فيه الكفار بالسبي والقتل والأسر في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26)﴾[7] .

ثم جاء في ختام الآية أن الله (ﷻ)يتوب على من يشاء من المشركين فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27)﴾ [8]

المطلب الثاني

غزوة حُنين في التفسير النقلي

قال الله تبارك وتعالى:{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ

الْكَافِرِينَ(26) }، قال ابن جريج، عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من [سورة] "براءة".

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعددهم ولا بعدتهم ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله (ﷺ). ثم أنزل [الله] نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

وقد قال الإمام أحمد[9]: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت يونس يحدث عن الزهري، عن عبيد الله، عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ﷺ) : "خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة".

وهكذا رواه الترمذي[10] ثم قال:هذا حديث حسن غريب، لا يسنده كبير أحد غير جرير بن حازم، وإنما روي عن الزهري، عن النبي (ﷺ) مرسلاً[11].

قال الباحث: الآية نص في أن النصر من عند الله وأن القلّة والكثرة ليست هي الفاصل بل نصر الله تعالى يتحقق مع القلّة كالكثرة إن توفرت شروط النصر، قال الله تعالى: لقد نصركم الله في مواطن كثيرة، يعني: من مشاهد كثيرة وهو يوم بدر، ويوم بني قريظة، ويوم خيبر، ويوم فتح مكة،

وخاصة يوم حنين يعني: نصركم الله في مواطن كثيرة. إذ أعجبتكم كثرتكم، يعني: جماعتكم، فلم تغن عنكم شيئا يعني: عن قضاء الله تعالى لم تغن كثرتكم شيئا. وذلك أن رسول الله (ﷺ) خرج إلى حنين في اثني عشر ألفا، وعشرة آلاف خرجوا معه من المدينة إلى فتح مكة، وخرج معه ألفان من أهل مكة، فقال رجل من المسلمين يقال له سلمة بن سلامة: لن نغلب اليوم من قلة[12].

قال الباحث: هذه المواطن التي انتصر فيها المسلمون جلّها كان مع قلّة العدد والعدّة، واختلف فيمن نزل قول الله تعالى: "إذ أعجبتكم كثرتكم" الآية، قال الطبري: روي أن النبي (ﷺ) قال ذلك اليوم: لن نغلب من قلة، وقيل: قال ذلك رجل من المسلمين من أصحاب رسول الله (ﷺ)، وقول الله: ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾ ، يقول: فلم تغن عنكم كثرتكم شيئا ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ، يقول: وضاقت الأرض بسعتها عليكم، و"الباء" ههنا في معنى "في"، ومعناه: وضاقت عليكم الأرض في رحبها، وبرحبها، يقال منه: "مكان رحيب"، أي واسع. وإنما سميت الرحاب "رحابا" لسعتها[13].

قال الباحث: غالب المفسّرين لم ينسب القول للنبي (ﷺ) ، بل لرجل من أصحابه.

وقد كانت وقعة: "حنين" بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ (عليه السلام) من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله (ﷺ)، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك

بن عوف النضري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنعم، وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله (ﷺ) في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضا، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له "حنين"، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين، كما قال الله، (ﷻ)، وثبت رسول الله (ﷺ)، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، يثقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه، عليه الصلاة والسلام، ويدعو المسلمين إلى الرجعة [ويقول] :" أين يا عباد الله؟ إلي أنا رسول الله"، ويقول في تلك الحال: أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبو بكر، وعمر، رضي الله عنهما، والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم، رضي الله عنهم ثم أمر (ﷺ)عمه العباس –وكان جهير الصوت –أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة –يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه –فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون:

يا لبيك، يا لبيك، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعوا إلى رسول الله (ﷺ)، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، لبس درعه، ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله (ﷺ). فلما رجعت شرذمة منهم، أمرهم (عليه السلام) أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: "اللهم أنجز لي ما وعدتني" ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدلة بين يدي رسول الله (ﷺ)[14].

قال الباحث: ثبت النبي (ﷺ)، وثبتت معه ثلة من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبو بكر، وعمر، رضي الله عنهما، والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم، رضي الله عنهم ثم أمر (ﷺ) عمه العباس – وكان جهير الصوت –أن ينادي بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة، على ألا يفروا عنه، وقد استدل ابن كثير لذلك بما جاء في الصحيحين[15] من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، رضي الله عنهما، أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله (ﷺ) يوم حنين، فقال: لكن رسول الله (ﷺ) لم يفر، إن هوازن كانوا قوما رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله (ﷺ) وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله (ﷺ) البيضاء، وهو يقول: أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب.

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لكر ولا لفر ولا لهرب، وهو مع هذا أيضا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلا عليه، وعلما منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ أي: طمأنينته وثباته على رسوله، ﴿ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: الذين معه[16].

قال الباحث: أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، وأعانه الله بجنود من السماء كما جاء في الآية: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ ، وهي الملائكة، ﴿و وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، يقول: وعذب الله الذين جحدوا وحدانيته ورسالة رسوله محمد (ﷺ)، بالقتل وسبي الأهلين والذراري، وسلب الأموال والذلة = ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ ، يقول: هذا الذي فعلنا بهم من القتل والسبي = ﴿ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ ، يقول: هو ثواب أهل جحود وحدانيته ورسالة رسوله.

حدثني محمد بن الحسين قال، حدثنا أحمد بن المفضل قال، حدثنا أسباط، عن السدي: (وعذب الذين كفروا) ، يقول: قتلهم بالسيف، وحدثنا ابن وكيع قال، حدثنا أبو داود الحفري، عن يعقوب، عن جعفر، عن سعيد: ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، قال: بالهزيمة والقتل، وحدثني يونس قال، أخبرنا ابن

وهب قال، قال ابن زيد في قوله: ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ ، قال: من بقي منهم[17].

قال الباحث: ذكرت عدّة أقوال في نوع العذاب الذي عُذّبه الذين كفروا، وجاء كذلك في صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق أنبأنا معمر، عن همام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ) : "نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم" .

ولهذا قال تعالى: {ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين} [18]، وهو أيضا نوع من أنواع العذاب.

وقول الله تبارك وتعالى: { ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27) } قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما، فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناسا من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطي مائة مالك بن عوف النضري، واستعمله على قومه كما كان[19].

المطلب الثالث: غزوة حنين في التفسير العقلي

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25)﴾.

قال الرازي: اعلم أنه تعالى ذكر في الآية المتقدمة أنه يجب الإعراض عن مخالطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر وعن الأموال والتجارات والمساكن، رعاية لمصالح الدين، ولما علم الله تعالى أن هذا يشق جدا على النفوس والقلوب، ذكر ما يدل على أن من ترك الدنيا لأجل الدين فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا أيضا، وضرب تعالى لهذا مثلا، وذلك أن عسكر رسول الله (ﷺ) في واقعة حنين كانوا في غاية الكثرة والقوة، فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين، ثم في حال الانهزام لما تضرعوا إلى الله قواهم حتى هزموا عسكر الكفار، وذلك يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا، ومتى أطاع الله ورجّح الدين على الدنيا آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه، فكان ذكر هذا تسلية لأولئك الذين أمرهم الله بمقاطعة الآباء والأبناء والأموال والمساكن، لأجل مصلحة الدين وتصبيرا لهم عليها، ووعدا لهم على سبيل الرمز بأنهم إن فعلوا ذلك فالله تعالى يوصلهم إلى أقاربهم وأموالهم ومساكنهم على أحسن الوجوه، هذا تقرير النظم وهو في غاية الحسن[20].

قال الباحث: لم تختلف أقوال المفسرين أن الآية نزلت في غزوة حنين ونص الآية شاهد على ذلك، والمراد بالنصر المعونة: "قال الواحدي: النصر: المعونة على العدو خاصة، والمواطن جمع موطن، وهو كل موضع أقام به

الإنسان لأمر، فعلى هذا: مواطن الحرب مقاماتها مواقفها وامتناعها من الصرف لأنه جمع على صيغة لم يأت عليها واحد، والمواطن الكثيرة غزوات رسول الله. ويقال: إنها ثمانون موطنا، فأعلمهم الله تعالى بأنه هو الذي نصر المؤمنين، ومن نصره الله فلا غالب له"[21].

والمواطن الكثيرة: وقعات بدر، وقريظة، والنضير، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة. فإن قلت: كيف عطف الزمان والمكان وهو يوم حنين على المواطن؟ قلت: معناه وموطن يوم حنين. أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين. ويجوز أن يراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين، على أن الواجب أن يكون يوم حنين منصوبا بفعل مضمر لا بهذا الظاهر. وموجب ذلك أن قوله إذ أعجبتكم بدل من يوم حنين، فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح، لأن كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن ولم يكونوا كثيرا في جميعها، فبقى أن يكون ناصبه فعلا خاصا به، إلا إذا نصبت «إذ» بإضمار «اذكر» وحنين: واد بين مكة والطائف، كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفا الذين حضروا فتح مكة، منضما إليهم ألفان من الطلقاء، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فيمن ضامهم من إمداد سائر العرب فكان الجم الغفير، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، فساءت رسول الله (ﷺ). وقيل قائلها رسول الله (ﷺ) . وقيل أبو بكر (رضي الله عنه)وذلك قوله إذ أعجبتكم كثرتكم فاقتتلوا قتالا شديدا وأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة، وزل عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغوا مكة، وبقي رسول الله (ﷺ) وحده وهو ثابت في مركزه لا يتحلحل، ليس معه إلا عمه العباس (رضي الله عنه)آخذ بلجام دابته وأبو سفيان بن الحرث ابن عمه، وناهيك بهذه الوحدة شهادة صدق

على تناهى شجاعته ورباطة جأشه (ﷺ)، وما هي إلا من آيات النبوة، وقال: يا رب ائتني بما وعدتني، وقال (ﷺ) للعباس- وكان صيتا: صيح بالناس، فنادى الأنصار فخذا فخذا، ثم نادى: يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب البقرة، فكروا عنقا واحدا ، وهم يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بلق، فنظر رسول الله (ﷺ) إلى قتال المسلمين فقال: هذا حين حمى الوطيس، ثم أخذ كفا من تراب فرماهم به ثم قال: انهزموا ورب الكعبة فانهزموا، قال العباس: لكأني أنظر إلى رسول الله (ﷺ) يركض خلفهم على بغلته[22].

قال الباحث: هذه الآية شاهدة على صدق النبي (ﷺ) وشجاعته، فقد لبث وحده، وناهيك بهذه الوحدة شهادة صدق على تناهى شجاعته ورباطة جأشه (ﷺ)، وما هي إلا من آيات النبوة، ولم تضق الأرض عليه كما وقع لكثير من أصحابه، كما جاء في الآية: {وضاقت عليكم الأرض بما رحبت} ما مصدرية والباء بمعنى مع أي مع رحبها وحقيقته ملتبسة برحبها على أن الجار والمجرور في موضع الحال كقولك دخلت عليه بثياب السفر أى ملتبسابها والمعنى لم تجدوا موضعا لفراركم عن أعدائكم فكأنها ضاقت عليكم {ثم وليتم مدبرين} ثم انهزمتم[23]، بل حال النبي (ﷺ) هي ما جاء في الآية قال الله تعالى: ثم أنزل الله سكينته رحمته التي سكنوا بها وأمنوا على رسوله وعلى المؤمنين الذين انهزموا وإعادة الجار للتنبيه على اختلاف حاليهما. وقيل هم الذين ثبتوا مع الرسول (ﷺ) ولم يفروا، وأنزل جنودا لم تروها بأعينكم أي الملائكة وكانوا خمسة آلاف أو ثمانية أو ستة عشر على اختلاف الأقوال، وعذب الذين كفروا بالقتل والأسر والسبي، وذلك جزاء الكافرين أي ما فعل بهم

جزاء كفرهم في الدنيا، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء منهم بالتوفيق للإسلام. والله غفور رحيم يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم.

روي (أن ناسا منهم جاءوا إلى رسول الله (ﷺ) وأسلموا وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرهم وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا. وقد سبي يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى. فقال (ﷺ) : اختاروا إما سباياكم وإما أموالكم؟ فقالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئا فقام رسول الله (ﷺ) وقال: إن هؤلاء جاءوا مسلمين وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئا فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه فقالوا: رضينا وسلمنا فقال: إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا فرفعوا أنهم قد رضوا)[24].

المطلب الرابع: الموازنة بين التفسير النقلي والتفسير العقلي

تحدثت هذه الآيات عن غزوة حنين، وقد تتبع الباحث أقوال العلماء في مختلف التفاسير من الاتجاه العقلي والنقلي، وخلص إلى الآتي:

1 – تحدّث المفسرون من الاتجاهين على أن نصر الله للمؤمنين لم يكن بسبب عدد ولا عدّة، فالنصر مسند إلى الله (ﷻ)، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: (لقد نصركم الله) ، أيها المؤمنون في أماكن حرب توطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم كثيرة = (ويوم حنين) ، يقول: وفي يوم حنين أيضا قد نصركم[25]، فإن النصر قد حصل بعد التمحيص وإنزال السكينة على رسول الله بعد أن علموا أن الكثرة لا

تغني عنهم من الله شيئا، ومثل ذلك ثبت عن أصحاب التفسير العقلي: قال أبو السعود: في تفسير الآية: {لقد نصركم الله} الخطاب للمؤمنين خاصة، {في مواطن كثيرة} من الحروب وهي مواقعها ومقاماتها والمراد بها وقعات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة، {ويوم حنين} عطف على محل في مواطن بحذف المضاف في أحدهما أي وموطن يوم حنين أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين ولعل التغيير للإيماء إلى ما وقع فيه من قلة الثبات من أول الأمر[26].

2 – لم تختلف أقوال المفسرين أن الآية نزلت في غزوة حنين ونص الآية شاهد على ذلك.

3 – اختلفوا في تأويل عطف الزمان وهو يوم حنين على المكان وهو المواطن، لكن أوله أغلب المفسرين من الاتجاهين بأن المراد: وموطن يوم حنين، أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين، وقال البعض بأن المراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين، على أن الواجب أن يكون يوم حنين منصوبا بفعل مضمر لا بهذا الظاهر، وموجب ذلك أن قوله إذ أعجبتكم بدل من يوم حنين، فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح، لأن كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن ولم يكونوا كثيرا في جميعها، وهذا التوجيه هو الذي أشار له ابن عطية بقوله: "ولم يصرف مواطن لأنه جمع ونهاية جمع، ويوم عطف على موضع قوله في مواطن أو على لفظة بتقدير وفي يوم، فانحذف حرف الخفض، وحنين واد بين مكة والطائف قريب من ذي المجاز وصرف حين أريد به الموضع والمكان، ولو أريد به البقعة لم يصرف"[27].

4 – لم يتعرض أصحاب الاتجاه النقلي إلى الحديث عن عدد الجنود التي أيد بها النبي (ﷺ)، بل اكتفوا بذكر أنها ملائكة، كما في النقل عن ابن كثير قال: عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله (ﷺ) يوم حنين، والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به، ولكني أبيت أن تظهر هوازن على قريش، فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله، إني أرى خيلا بلقا، فقال: "يا شيبة، إنه لا يراها إلا كافر". فضرب بيده في صدري، ثم قال: "اللهم، اهد شيبة"، ثم ضربها الثانية، ثم قال: "اللهم، اهد شيبة"، ثم ضربها الثالثة ثم قال: "اللهم اهد شيبة". قال: فوالله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلي منه، وذكر تمام الحديث، في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله (ﷺ) حتى هزم الله المشركين.

قال محمد بن إسحاق: حدثني والدي إسحاق بن يسار، عمن حدثه، عن جبير بن مطعم، رضي الله عنه، قال: إنا لمع رسول الله (ﷺ) يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوي من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة[28].

بينما نرى عددا من أصحاب التفسير العقلي يذكر أعدادا معيّنة بين خمسة آلاف وستة عشر ألف، ومن بين هؤلاء ما ورد عن أبي السعود في تفسير الآية: {وأنزل جنودا لم تروها} أي بأبصاركم كما يرى بعضكم بعضا وهم الملائكة عليهم السلام عليهم البياض على خيول بلق فنظر النبي (ﷺ) إلى قتال المسلمين فقال هكذا حين حمي الوطيس فأخذ كفا من التراب فرمى

به نحو المشركين وقال شاهت الوجوه فلم يبق منهم أحدا إلا امتلأت به عيناه ثم قال (ﷺ) انهزموا ورب الكعبة واختلفوا في عدد الملائكة يومئذ فقيل خمسة آلاف وقيل ثمانية آلاف وقيل ستة عشر ألفا وفي قتالهم أيضا فقيل قاتلوا وقيل لم يقاتلوا إلا يوم بدر وإنما كان نزولهم لتقوية قلوب المؤمنين بإلقاء الخواطر الحسنة وتأييدهم بذلك وإلقاء الرعب في قلوب المشركين قال سعيد بن المسيب حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين قال لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم فلما انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء تلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا[29]

الخاتمـة

عرض القرآن الكريم غزوة حُنين في أسلوب يغلب عليه الإيجاز في أغلب الأحيان، وسيحاول الباحث اقتضاب نتائج هذه الغزوة التي نص عليها القرآن الكريم مع الإشارة إلى الموازنة بين أصحاب التفسير النقلي والعقلي:

1- تحدّث المفسرون من الاتجاهين على أن نصر الله للمؤمنين لم يكن بسبب عدد ولا عدّة، فالنصر مسند إلى الله (ﷻ)، فإن النصر قد حصل بعد التمحيص وإنزال السكينة على رسول الله بعد أن علموا أن الكثرة لا تغني عنهم من الله شيئا، فالآية نص في أن النصر من عند الله وأن القلّة والكثرة ليست هي الفاصل بل نصر الله تعالى يتحقق مع القلّة كالكثرة إن توفرت شروط النصر، قال الله تعالى: لقد نصركم الله في مواطن كثيرة، يعني: من مشاهد كثيرة وهو يوم بدر، ويوم بني قريظة، ويوم خيبر، ويوم

فتح مكة، وخاصة يوم حنين، كما بيّنوا ثبات الرسول (ﷺ) والمؤمنين، وإمدادهم بالملائكة، والعذاب الذي وقع فيه الكفار بالسبي والقتل والأسر.

2- ذكر عن أصحاب التفسير من الاتجاهين أن المواطن التي انتصر فيها المسلمون جلّها كان مع قلّة العدد والعدّة، واختلف فيمن نزل قول الله تعالى: "إذ أعجبتكم كثرتكم" الآية، قال الطبري: روي أن النبي (ﷺ) قال ذلك اليوم: لن نغلب من قلة، وقيل: قال ذلك رجل من المسلمين من أصحاب رسول الله (ﷺ)، وقول الله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ ، يقول: فلم تغن عنكم كثرتكم شيئا ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ، يقول: وضاقت الأرض بسعتها عليكم، و"الباء" ههنا في معنى "في"، ومعناه: وضاقت عليكم الأرض في رحبها، وبرحبها، يقال منه: "مكان رحيب"، أي واسع. وإنما سميت الرحاب "رحابا" لسعتها[30]، وغالب المفسّرين لم ينسب القول للنبي (ﷺ)، بل لرجل من أصحابه.

3- لم تختلف أقوال المفسرين أن الآية نزلت في غزوة حنين لورود النص بذلك.

4- اختلفوا في تأويل عطف الزمان وهو يوم حنين على المكان وهو المواطن، لكن أوله أغلب المفسرين من الاتجاهين بأن المراد: وموطن يوم حنين، أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين، وقال البعض بأن المراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين.

5- لم يتعرض أصحاب الاتجاه النقلي إلى الحديث عن عدد الجنود التي أيد بها النبي (ﷺ)، يوم حنين بل اكتفوا بذكر أنها ملائكة، قال ابن جرير الطبري: وأعانه الله بجنود من السماء كما جاء في الآية: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ، وهي الملائكة[31].

الهوامش:

---

1) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (ﷺ),أبو بدر محمد بن بكر آل عابد, ج1, دار الغرب الإسلامي, تونس, ط1, 1994: ص18.

2) غزوات الرسول، محمد هشام شربيني، الجمهورية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر, 2013: ص279.

3) مرويات السرايا والبعوث النبوية، محمد عبد الستار إبراهيم القرشي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المنوفية، مصر, 2012: ص4.

4) حياة رسول الله، محمود شلبي، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت, لبنان، 2005: ص113.

5) آل عابد, مرجع سبق ذكره: ص18.

6) سورة التوبة : الآية (25)

7) سورة التوبة: الآية (26)

8) سورة التوبة: الآية (27)

9) «مسند أحمد» (3/ 199 ت أحمد شاكر)

10) «سنن الترمذي» (4/ 125 ت شاكر)

11) «تفسير ابن كثير – ت السلامة» (4/ 125):

12) «تفسير السمرقندي = بحر العلوم» (2/ 48):

13) «تفسير الطبري = جامع البيان ط دار التربية والتراث» (14/ 179).

14) «تفسير ابن كثير – ت السلامة» (4/ 125).

15) «صحيح البخاري» (4/ 31 ط السلطانية)، «صحيح مسلم» (3/ 1401 ت عبد الباقي).

16) «تفسير ابن كثير – ت السلامة» (4/ 128).

17) «تفسير الطبري = جامع البيان ط دار التربية والتراث» (14/ 189).

18) «تفسير ابن كثير – ت السلامة» (4/ 130).

19) «تفسير ابن كثير – ت السلامة» (4/ 130).

20) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير» (16/ 18).

21) «تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير» (16/ 18).

22) «تفسير الزمخشري الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل» (2/ 259).

23) «تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (1/ 672).

24) «تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (3/ 77).

25) «تفسير الطبري = جامع البيان ط دار التربية والتراث» (14/ 178).

26) «تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (4/ 55).

27) «تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (3/ 19):

28) «تفسير ابن كثير – ت السلامة» (4/ 129).

29) «تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (4/ 56).

30)«تفسير الطبري = جامع البيان ط دار التربية والتراث» (14/ 179).

31) «تفسير الطبري = جامع البيان ط دار التربية والتراث» (14/ 189).

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

– القرآن الكريم

1-إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الحكيم ,للقاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي, تحقيق محمد بن علي جيلاني, المكتبة التوقيفية.

2-أنوار التنزيل وأسرار التأويل, ناصر الدين البيضاوي, حققه الشيخ محمد محيي الدين الأصفر, دار الكتب العلمية, 2016.

3- تفسير القرآن العظيم تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون, بيروت، 1419هـ.

4-تفسير القرآن الكريم, ابن كثير, دار إحياء الكتب العربية, القاهرة, مصر, د.ت.

5-جامع البيان من تأويل آي القرآن, محمد بن جرير الطبري, مطبعة البابي الحلبي, القاهرة, ط3, 1388هـ.

6-سنن الترمذي, تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان .

7- صحيح البخاري, الطبعة السلطانية, اشراف محمد زهير بن ناصر الناصر , دار طوق النجاة, الطبعة الأولى, 1422هـ.

8- صحيح مسلم, تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي, دار إحياء التراث العربي , بيروت, لبنان.

9- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي, بيروت، لبنان, ط 3، 1407هـ.

10- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز, عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي, تحقيق عبدالسلام عبدالشافي محمد, دار الكتب العلمية, الطبعة الأولى, 1422هـ.

11- مدرك التنزيل وحقائق التنزيل, أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي, تحقيق يوسف علي بديوي, دار ابن كثير, دمشق, بيروت ,الطبعة الثامنة,1439هـ.

12- مسند الإمام أحمد بن حنبل ,تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد, مؤسسة الرسالة, بيروت, لبنان .

13-مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي, بيروت، ط 3، 1420هـ.

ثانياً: المراجع:

1- حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (ﷺ)،أبو بدر محمد بن بكر آل عابد، دار الغرب الإسلامي للنشر والتوزيع، تونس، 2011.

2- حياة رسول الله، محمود شلبى، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان, 2005.

3- غزوات الرسول، محمد هشام شربينى، الجمهورية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر, 2013.

ثالثاً: الرسائل العلمية :

1- مرويات السرايا والبعوث النبوية، محمد عبد الستار إبراهيم القرشي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المنوفية، مصر, 2012: ص4.